المحاضرة السابعة: المدرسة الوظيفيةالفرنسية. **الأستاذة: وفاء دبيش.**

النشـــأة والتكوّن:

تكونت ملامح الاتجاه الوظيفي في كنف حلقة براغ التشيكوسلوفاكية على يد فريق من اللغويين التشيك اللذين أفادوا من آراء دي سوسير بقدر ما استغلت منطلقاتها النظرية في أعمالها وكونت لنفسها نظرية لغوية على أنها لم تحدد منهجها إلا بالانطلاق من تحديد للغة باعتبارها نظاما وظيفيا يرمي إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل .فإذا كان دور اللغة هو توفير أسباب التواصل فإن دراسة اللغة ينبغي أن تراعي ذلك، فكل ما يضطلع بدور في التواصل ينتمي إلى اللغة وكل ما ليس له مثل هذا الدور فهو خارج عنها، وبعبارة أخرى فإن العناصر اللغوية هي التي تحمل شحنة إعلامية، أما التي لا يمكن أن نعتبرها ذات شحنة إعلامية فلا يعتد بها اللغوي، فالأولى وحدها هي التي لها وظيفة .وقد اعتمدت مدرسة براغ هذا المنطلق لتدريس خاصة الأصوات وتضبط منهجا للتمييز بين ما هو وظيفي فيها وما ليس وظيفيا، وكان تروباتزكوي هو الذي بلور في أجلى مظهر نتائج أعمالها في كتابه: مبادئ الأصوات الوظيفية principes de phonologie).[1] إلا أن النظرية الوظيفية لم تتبلور مظاهرها بشكل تام مع مدرسة براغ وحسب، بل تواصلت جهود التطور والنماء مع صقل مبادئها في فرنسا بفضل أندري مارتينيMartinet * بشكل خاص.

1- مبادىء هذه المدرسة:

- **وظيفة اللغة** : الوظيفة الجوهرية للغة عند "مارتيني" هي التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي، هذه الوظيفة تؤديها اللغة باعتبارها مؤسسة إنسانية، رغم اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى آخر ، وهذا لا يعني أنه ينفي الوظائف الأخرى التي تؤديها اللغة بل يعتبرها ثانوية أو هامشية، يقول "مارتيني": "إننا لنحترز" من أن ننسى أنّ اللغة تستعمل لوظائف أخرى غير تلك التي يتم بها

(1)ينظر: عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية المعاصرة (ثلة من أساتذة الجامعة التونسية)، منشورات المعهد القوي لعلوم التربية، تونس، مارس 1986، ص 40

*- رائد مدرسة براغ بدون منازع، ولد سنة 1908 بمدينة السافو Savoie الفرنسية. اشتغل باللسانيات الوظيفية وتدريس اللغة الانجليزية، كما تخصص في اللغة الألمانية وشغل منصب مدير الدراسات العليا في باريس، ويعمل أستاذا في جامعة السوربون منذ سنة 1960. ومن أهم المجازاته: اللسانيات الآنية، ومبادئ من اللسانيات العامة، وللغة والوظيفة. وبعد مارتيني الامتداد الطبيعي لتروبتسكوي؛ لأنه ينظر إلى اللفظة. حيث استقلالها تركيبيا وموقعيا داخل نفس التركيب من خلال الوحدات الوظيفية والتي استخدمها في نظريته لعلم التركيب. ينظر : ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديثة) المبادئ والأعلام، بيروت - لبنان : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983، ص 252

التفاهم بين متكلميها "، واللغة عنده ليست نسخا الأشياء كما هي في الواقع أو نقلا آليا لها، بل هي بنى منظمة ومتراصة ومتكاملة يتطلع المتكلم من خلالها إلى عالم الأشياء والأحاسيس، وهو ما ينتج الخبرة الإنسانية، فتعلم لغة أجنبية لا يعني وضع علامات جديدة لأشياء مألوفة لدى المتكلم ، إنما هو اكتساب نظرة تحليلية مغايرة في إطار التواصل بالتعرف على البنى اللغوية الجديدة التي تعكس الواقع بطريقة مختلفة عن اللغة الأم، يقول: والواقع أنه ما من لسان إلا وله تنظيم خاص لمعطيات التجربة، وإن دراسة لسان ما لا تعني وضع موسومات جديدة على مواضع معروفة، ولكنها تعني التعود على التحليل بطريقة مغايرة، وذلك ما يكون التبليغ اللساني [1].

- **التقطيع المزدوج [2]:**

وتكمن مقدمات هذا المفهوم في كثير من المبادئ التي أرساها دي سوسير، وكأنما راعى أندري مارتيني الأواصر الرابطة بينها فوضعها في شبكة وجاء بنظريته حول التقطيع المزدوج [3] (La double articulation) ، وهي نظامية اللغة، الخلافات والعلاقات، خطية الدال المحور التركيبي المحور الاستيدالي، الطابع الفاضلي لوحدات اللغة، والتقابلات الممكنة والممكنة لاستبدال الأصوات بعضها البعض، أي التقطيع والتعويض.

فمن المتفق عليه أن اللغة نظام من الأدلة والعلاقات، أي لا تتواجد وحداتها إلا في نطاق العلاقات التي تربطها بغيرها من الوحدات التابعة لنفس النظام ولا تتحدّد إلا باعتبار وظيفتها ضمن المجموع، وهذا ما صرح به ف دي سوسير في قوله: « وهكذا فإنّ كلّ شيء في حالة لغوية ما إنّما يقوم على العلاقات »، ولقد ذهب سوسير إلى أن الأصوات، الصور المكتوبة، والمعاني في لغة ما، لا توجد إلا من العلاقات القائمة بين بعضها وبعض ، وهي تنتمي إلى نظام من العلاقات؛ ولا وجود قبل هذا النظام، لا للأصوات ولا للمعاني؛ فهي إنَّما تصدر عن هذا النظام، ولكي يُبيِّن سوسير أن المعاني لا توجد قبل أن يوجد النظام في لغة بعينها، فقد اتجه إلى ظاهرة تعدد اللغات غير أنه لكل لغة طريقتها في تقطيع الواقع، وهذا المفهوم محوري عند الوظيفيين ويُؤكِّد دي سوسير أيضاً أن تلك الوحدات تنتظم عبر نوعين من العلاقات، فهناك علاقات تركيبية تنجم عن توظيف الوحدات بمراعاة تسلسلها في مدرج الكلام، فتأتي التركيبات القائمة على عُنصرين فأكثر والمُمكن إنشاؤها في ترتيب مُعيّن سيفقد التركيب معناه وقيمته إذا اختل ترتيبه (نظامه) وقد يكتسب ذلك التركيب جراء ذلك

---

(1)شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع – لبنان – الطبعة الأولى 2004 ص 36

(2)المرجع نفسه، ص: 43

(3) - 45أندري مارتيني، وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة ناذر سراج، دار المنتخب العربي للنشر والتوزيع، بليروت، لبنان، ط1 ، 1996، ص 33

التغيير قيمة أخرى، ويتحكّم فيه كلٌ من خاصية الخطية التي تتميز بها اللغة وكذا التقطيع المزدوج، وعلاقات استبدالية ، وتتمثل في العلاقات التي ترتبط عبرها الكلمات بعضها بالبعض في ذهن المتكلم وباستحضارها عن طريق الذاكرة .وهناك مفهوم سوسيري بنى عليه أندري مارتيني نموذجه التحليلي المستمد من مفهوم التقطيع المزدوج، وهو الطابع التفاضلي لوحدات اللغة، ويتم وفق هذا الطابع تمييز أي وحدة لغوية، وتحديد وظيفتها في السياق اللغوي بما تختلف عن غيرها داخل نظام واحد، فمثلاً وحدة دار / تختلف عن وحدة /سار / باختِلاف فونيم /س/ عن فونيم د/، ويحدث جرد
الوحدات الصوتية لأي لغة باستعمال التقابلات الممكنة واستبدال الأصوات بعضها ببعض، فالكلمتان المنابقتان قوبلنا باستعمال التقطيع والتعويض.
وهكذا بعد عرض المفاهيم التي يقوم عليها التقطيع المزدوج، يمكن تعريفه بالقول إنّه أساس نظرية "مارتيني"، الذي يرى أنّ اللسان البشري يختلف عن بقية الوسائل التبليغية لكونه مزدوج التقطيع، ويعني التقطيع عنده تنظيم اللسان البشري تنظيما خاصا يتم بموجبه تجزئة التجربة الإنسانية إلى وحدات تقام على مستويين مختلفين هما: مستوى التقطيع الأول ومستوى التقطيع الثاني. انطلاقا من هذا يكون التقطيع المزدوج قانونا أساسيا من قوانين اللغة البشرية [1]

- **مستوى التقطيع الأولLa premiere articulation**

وفيه نحصل على وحدات لسانية ذات دلالة (مدلول (وأصوات (دال) غير قابلة للتجزئة إلى وحدات أصغر ذات دلالة، يقول " مارتيني" : فالتقطيع الأول للغة هو ذلك الذي يقوم على أن كل ظاهرة من ظواهر التجربة البشرية نريد تبليغها ، أو كل حاجة من حوائجنا نود تعريف غيرنا بها تحلّل إلى متوالية من الوحدات لكل منها صورة صوتية ومعنى"، وتسمى هذه الوحدات بالمونيم Monemes ، وهو مصطلح تقابله في العربية كلمة اللفاظم ومفردها لفظم، والمونيم أو اللفظم عند الوظيفين يعد بديلا للدليل عند "سوسير"، وهو وحدة مزدوجة ذات وجهين دال و مدلول مثال اشتريت ،قلما جملة تحتوي على ثلاث مونيمات متتابعة (دال + مدلول)، وهي : اشتري / ت / قلما وهي وحدات دنيا يستحيل تحليلها إلى وحدات دالة اصغر منها ، ويمكن استبدالها بوحدات اخرى ضمن قائمة مفتوحة مثل خبز، طاولة ، سيارة...الخ، كما يمكن استبدالها في جملة بعت قلما بوحدات اخرى ضمن قائمة مغلقة مثل، قلمي ، قلمك، قلمكم ، قلمه.....الخ وتستعمل المدرسة التوزيعية مصطلح) (Morpheme) مورفيم) ليردي مفهوم(مونيم)، ويمكن تجزئة المونيم حسب النحو الوظيفي إلى وحدتين الوحدة

(1) (46)ينظر بوقرة نعمان محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الطبعة
الأولى، 2006، ص 117

المعجمية Lexeme): وهو ما يتغير بتوزيع الكلمة على المحور الاستبدال Axe) paradigmatique)إذا أردنا أن نحصل على قيمة متميزة (معنى آخر)الوحدة الصرفية النحوية (Morpheme) هو ما يتغير بتوزيع الكلمة على المحوالتركيبي (Axe syntagmatique). مستوى التقطيع الثاني La deuxieme articulation وفيه يتم تحليل الوحدات الدالة (المونيمات) إلى وحدات صوتية دنيا غير دالة فيذاتها، لكنها مميّزة، أي قادرة على تغيير المعنى، يمكن تقطيع المونيمات إلى وحدات صغرى مجردة من كل دلالة ولكنها مميزة تسمى بالفونيمات وهي محصورة في كل لسان [1]. ومن ثم كانت لها وظيفة تمييزية، وتسمى هذه الوحدات بالفونيمات Phonemes أو الصواتم ومفردها صوتم ، وهي محدودة في كل اللغات، مثال : المونيم:" قلمي" يقطع الى اربع فونيمات وهي : ق/ل/م/ي/.

2- مبدأ الاقتصاد اللغوي

إن تطور اللغة مرتبط بشكل كبير بأسباب خارجية أهمها: اتصال بنية لغة ببنية لغة أخرى، وحاجة التواصل داخل المجتمع هو أحد الأسباب الرئيسية التي تساعد على تطور اللغة[2] ، يقول "أندريه مارتنيه": "تفهم اللغة الإنسانية من وجهة النظر الوظيفية كأنها تسعى إلى نقل تجربة معقدة بواسطة أصوات محددة تجعلها مدركة عن طريق الحواس وقابل للتحليل إلى وحدات يوافق كل منها عنصرا من التجربة موضوع النقل" [3]، فقدرة اللغة على التجسيد في الوحدات سمح لها بتحقيق ,هذا التقطيع، وبالتالي فإن هذا الأخير يوفر إمكانية الاقتصاد. أما ما نسميه بالجهد الأدنى La loi de moindre effort"فإنه يحكم جميع الأحداث الكلامية، ولولاه لما استطعنا إيجاد لغة مناسبة للتفاهم؛ لأننا سننهك أنفسنا في استعمال ما لا طائل إلى حضره من الأصوات، والكلمات للتعبير عن تجربة بسيطة في كل مناسبة من المناسبات، بل إنه على المتكلم أن يحدث لغة جديدة في كل مرة من مرات مجابهة ذلك، وهذا يستتبع معه تعميق مقولة الاعتباطية التي فرقت بين الأصوات والكلمات، في حين أن المعنى واحد في جميع اللغات. [4]

3- ثنائية الخطاب والشفرة Message et le code :

وهي ثنائية أخرى طورها عن ثنائية اللسان والكلام السوسير، حيث يرى بأن ثنائية (اللسان والكلام من وجهة نظر سوسير هي مادة خام لم يتم بلورتها بالشكل المناسب، يقول: ".. أستبعد شخصيا التقابل السوسيري بين لسان وكلام؛ إننا نواجه ظاهرة مدركة

---

(1) سليم بابا عمر وبائي عميري، اللسانيات العامة الميسرة (علم التراكيب)الجزائر، 1990 ص 74

(2)ينظر في تفصيل ذلك: ميشال زكرياء الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان، ط 02، 1983 م، ص 145/225

(3) 2أندريه مارتينيه، وظيفة الألسن وديناميكيتها، ص 145

(4)مصطفى غلفان، اللسانيات ميجيات والجاهات ص313 أندري مارتنيه مبادئ في اللغات العامة. (النسخة الفرنسية) ص 25

هي الكلام إضافة إلى سلوك الكائنات الحية التي تتبادل الكلام، وهذا عنصر مدرك يجدر بنا الانطلاق منه بدءًا، والاستبطان ليس مسلكا جديرًا بالاحترام في البحث العلمي.. ليس تم لسان وكلام، هناك كلام فقط، ومن ثم العناصر التي لها في الكلام ملائمة pertinence للسان موضوع البحث.." [1] وهذا يبين بأن مارتنيه قد اكتفى بنص المحاضرات التي نشرها بالي وسيشهاي في فهم وتمثل هذه الثنائية التأسيسية في فكر.

ومن خلال ذلك يكون نقده صحيحًا، غير أن تفسير هذه الثنائيات يجب أن يربط بشرح وفهم الناشرين وهو فهم مجانب للصواب تماما- وليس بسوسير، لأن هذا الأخير لم يستبعد الطابع الاجتماعي للكلام بل أكد عليه مرارا بل وأكثر من ذلك استعمل مصطلحا دقيقا فات مارتنيه، وهو "اللسان الخطابي la langue de discours " يقول سوسير: "..إن التعرف على العناصر التي تتألف من الكلمة تقتضي تحليلا، لكن الكلمة ذاتها لا تنجم عن تحليل للجملة، لأن الجملة لا توجد إلا في الكلام أي في اللسان الخطابي، في حين أن الكلمة وحدة محلها الكنز الذهني خارج كلّ خطاب... [2]على كل حال هذا النص لم يظهر إلا سنة 1967م وعليه فإنّ النقد الذي عرضه مارتنيه كان دقيقا في تفعيل هذا المفهوم.

4- ثنائية الشكل والوظيفةLa forme et fonction:

ينطلق الوظيفيون عادة من مدونة Corpus جاهزة سلفا والتي تكتنز بالوحدات على مستواها التقطيعي الأول، أو ما يسمى في اللسانيات السوسيرية الأدلة اللغوية وهو الشق الأساس في تحديد

العلامة التي يطلقها المخاطب بجهازه الصوتي والمستندة على العرف الاجتماعي في الدلالة، حيث تنبني على شكل صوتي محدد" صورة أكوستيكية Image" acoustiqueالمتشكلة من مجموعة من العلاقات الداخلية فتنتسق وتنتظم لتأدية هذا الدور المحدد لها، وتكمن محمة اللساني في وصف هذه الأدوار أو الوظائف من خلال فصل ما هو موجيمي عما هو فونيمي، فالمونيم وحدة قابلة للتحليل بدورها إلى فونيمات ذات خصائص تميزية محددة.

خـــــــــــــاتمة:

من خلال ما تقدم مع نستنتج أن الاشتغال بالمعنى، والبناء عليه يطرح جملة من العقبات أمام الباحثين، وقد تحول بينه وبين بلوغ أهدافه، غير أن موقف أندريه "مارتنيه من ذلك كان أكثر مرونة من السلوكيين لأنه بحسب الوظيفين ليس من الحكمة اعتماد مناهج تتجاوز بالكامل أهمية الوحدات الدالة على المعاني، هذا الأخير الذي يتحكم في تراتبية

---

(1)مختار زواوي، مقدمات في النظرية السوسيرية، ص 68-69

(2)مصطفى غلفان، اللسانيات ميجيات والجاهات ص313 أندري مارتنيه مبادئ في اللغات العامة. (النسخة الفرنسية) ص 25

المباني على النحو الذي مرة مع "أندريه" "مارتنيه عندما قال: "إن أي تغيير في المعنى يؤدي بالضرورة إلى التغير في المبنى" [1]ومن هنا فإن دراسة التراكيب مع دراسة الفونولوجية تعد من صلب النظرية اللسانية الوظيفية التي تسعى سعيا حثيثا إلى حل المشكلة اللغوية بالوسائل العلمية والمنهجية المتاحة مع تحريب مستمر لتحليل هذه المستويات اللغوية المتناسقة.

(1) 5 André Martinet, Eléments de linguistique générale, p 33.